نظرية المؤامرة:

لماذا تصاعدت أعمال التآمر على الساحة الإقليمية؟

لم تكن مشكلة تحليل التطورات الجارية في الشرق الأوسط، ترتبط فقط بما أصبح يسمى "عدم اليقين" من ناحية، وعدم القدرة على التوقع من ناحية أخرى، وإنما أيضاً "عدم التمكن من التفسير" أحياناً، وهو ما حاول المركز أن يتعامل معه، في أحد أبواب المجلة، من خلال نوعية خاصة من الكتاب، لا يتمتعون فقط بقدرة تحليلية متميزة، وإنما بخبرة ورؤية تتيح تقديم أقرب الإجابات إلى "العلم"، رداً على أسئلة محيرة تتناول اتجاهات سلوك وأنماط تفكير لا تتيح السوابق القريبة، أو النظريات المستقرة، وتقديم تفسير واحد مؤكد لها.

كانت تلك النوعية من الأسئلة التي يفرزها الإقليم تتلاحق بإصرار، وبأكبر من قدرة دورية أكاديمية، حتى لو كانت شهرية، على تناولها كلها، فتنظيم مثل "داعش" يتفنن كل شهر في إخراج طريقة للقتل بطريقة وحشية مختلفة، لا يمكن معها تجنب محاولة تفسيرها. وهناك قادة لا يدري أحد حتى الآن كيف يفكرون بالضبط في المواقف التي وضعوا أنفسهم أو تنظيماتهم أو دولهم فيها. وحتى تلك الدوافع المعقدة التي تجعل انتحارياً يقتل نفسه، أو مهاجراً غير شرعي يتقدم نحو التهلكة، أو أشخاص يتسللون إلى "مناطق قتل"، كانت تتطلب إعادة تفسير، في ظل كثافتها الشديدة.

إن هناك عبارة شهيرة للكاتب البرتغالي جوزيه ساراماجو في بداية كتاب "القرين" أو الآخر، تقرر أن "Chaos is merely order waiting to be deciphered"، ووفقاً لهذا فإن الفوضى نفسها هي نظام، لكن لم يتم فك شيفرته بعد، وعلى الرغم مما يتضمنه ذلك من مبالغة في القدرة على التمكن من التفسير، خاصة في ظل الحالة الراهنة في الإقليم، بما يشهده من سلوكيات شديدة الشطط أو أفكار شديدة التطرف، أو وجود كثيرين ممن يعيشون – حسب تعبير شائع- " داخل فقاعات" لا يرون فيها سوى ما يفكرون فيه أو ما يقومون به، فإن المسألة كانت تستحق المحاولة دائماً.

أحد الأسئلة التي أثيرت كثيراً، أياً كانت الصيغة التي يطرح بها، يدور حول التفكير التآمري، الذي يكتسب شهرة – يستحقها في الواقع - في المنطقة العربية. لكن ما علاقة ذلك بمحاولة فهم ما يصعب تفسيره؟، والأهم: هل هناك مبررات حقيقية لعودته، لكي يسيطر على الاتجاه العام للتفكير في الإقليم مرة أخرى خلال سنوات ما بعد عام 2010؟ بالصورة التي تحدث حالياً، **وأخشى أن الإجابة هي: نعم.**

في عام 2006، تم تنفيذ مشروع علمي، في إطار أعمال مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، تحت عنوان " نظرية المؤامرة: قواعد التفكير غير العلمي في المنطقة العربية". كان أساس المشروع هو أن الناس لا يكفون عن التفكير، وأنهم إذا لم يفكروا بطريقة علمية (منظمة)، فسوف يفكرون بطرق عشوائية، **وبالتالي فإن هناك نوعين – على الأقل - من التفكير:**

الأول، تفكير علمي يستند إلى قواعد المنطق التي يتعلمها الطلبة في المدارس، وتدعمها ملاحظاتهم لما يدور داخل المنازل وجماعات الرفاق، ووسائل الإعلام، وتوجد بشأنها في الكتب تعبيرات غليظة كالسببية والنسبية والتعددية والترابط، لكنها تختصر في أن لكل شيء سبباً يمكن اكتشافه، وهي قواعد جاهد علماء مثل د. فؤاد ذكريا في محاولة نشرها، على أساس أن التقدم والتخلف أيضاً يأتيان من الطريقة التي يفكر بها الناس، أي الثقافة.

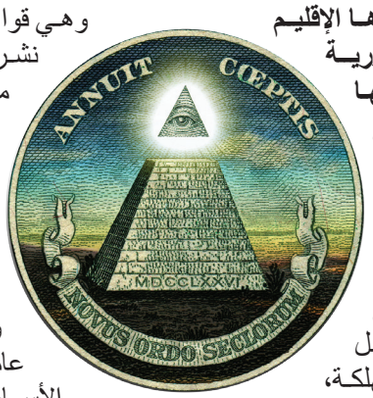

الثاني، هو التفكير غير العلمي، الذي يتخذ أشكالاً تكتسح مجتمعات مختلفة، أو مجتمعات طبيعية في فترات مختلفة، كالتفكير الخرافي أو المتعصب أو العاطفي أو العدمي أو الأسطوري أو "الغيبي"، أو التفكير التآمري، وهنا يتم تفسير أوضاع شخصية وتطورات عامة، بالعودة إلى الانطباعات أو الجن أو الأساطير أو مرجعيات منحرفة أو أيديولوجيات متطرفة، أو تلك "التحركات السرية التي تحكم العالم".

كان الإطار العام للمشروع شديد التحديد، فقد ذكر أن السنوات الخمس الممتدة بين (2001 – 2006) شهدت اتساعاً لاستخدام أحد أنماط التفكير التقليدية غير العلمية وهو "التفسير التآمري" للأحداث، بحيث تحول ما يعرف باسم نظرية المؤامرة إلى ظاهرة مسيطرة، **في ظل سمات تشير إلى موجة، أهمها:**

• أن التفكير التآمري أصبح (وقتها) يتسم بطابع اكتساحي، بدأ يمس كل التطورات والقضايا، حتى تلك التي تتسم بملامح أو توجد بشأنها معلومات محددة، ووصل أحياناً إلى درجة الهذيان.

• أن تلك الموجة تتسم بطابع وبائي، فهي تنتشر من دون تمييز على مستويات قادة الرأي من الصحفيين والإعلاميين وأساتذة الجامعات، إضافة إلى البيروقراطيين بفئاتهم المتعددة.

• أن التفسيرات التآمرية أصبحت تكتسب طابعاً شعبياً تصعب مقاومته، فقد أصبحت الأداة الأولى لتحليلات قطاعات الرأي العام المختلفة، بمدى ثقة وتأثير نفسي لا يتوفر لأية توجهات أخرى.

• أن تلك الموجة تتسم بالطابع المزمن، فلم تعد مؤقتة ترتبط بالحروب أو التطورات الكبرى، وإنما إطار مستمر ينسحب على كل شيء بعمق يوحي بسمات هيكلية لن تتوقف ببساطة.

• أنها تتخذ أبعاداً عملية، فلم تعد مجرد نمط تفكير وإنما موجه حركة، في التعامل مع مشكلات كالإرهاب أو "الآخر"، من الجانبين، فكل منهما يتعامل مع الآخر بمنطق المؤامرة.

كان هدف المشروع هو تفسير ما يصعب تفسيره، في ظل أسئلة عن المصادر التي أتت منها أسس التفكير التآمري، والأنماط التي يبدو أن من يسيرون في هذا الاتجاه يفكرون وفقاً لها، مثل الاستهداف والاستدراج، والمستفيد، والتشكيك، والتزامن، والهذيان، ثم محاولة لاكتشاف ما إذا كان يوجد في مناهج الدراسة أو خطب المساجد أو برامج الأحزاب وغيرها، ما يدفع في هذا الاتجاه.

الشرح سهل، فبدون مؤشرات، قد يتم الاعتقاد دائماً أننا مستهدفون من قوى خارجية، أو أننا نستدرج دائماً إلى مناطق قتل، أو نبحث دائماً عن المستفيد، أو نتساءل لماذا حدث هذا في الوقت الذي جرى فيه ذلك، أو نشكك في كل ما نراه، أو نعتقد أحياناً – وهو نمط شعبي – أن قراءة عبارة "كوكا كولا" بطريقة معكوسة، تشير إلى أن هناك من يستهدف الإسلام، لدرجة أن الأستاذ الكبير السيد يس وجه انتقاداً جيداً للمشروع مفاده: كيف تحاولون إيجاد تفسيرات علمية لأنماط تفكير تعتقدون أنها غير علمية؟

المهم، أن المشروع شهد عملية تشريح محددة لكل المصطلحات المتعلقة به، وتم التمييز بين وجود أعمال التآمر في العلاقات الدولية، والإصرار على تفسير كل شيء على أنه مؤامرة، وأن كل ما يمكن تفسيره بناء على مؤشرات محددة لا يعد مؤامرة، بل إنه حتى المؤامرات نفسها يمكن أن توجد مصطلحات لفهمها، كالصفقات السرية، وأن ما يعد مؤامرة هو الأعمال التي يتم تدبيرها "خارج الإطار المشروع"، كأن يتم الاتفاق على قتل شخص، أو استهداف مؤسسة، أو قلب نظام، أو دعم جماعة، بأساليب خاصة، يتم إنكارها فيما بعد، وأنه لا توجد أي مفاجأة في أن تقوم الأطراف الأخرى (خاصة المناوئين) بأعمال تآمر، حتى لو كانوا يبدون كأصدقاء أو حلفاء.

يضاف لذلك، أن المؤامرات لن تكون مجدية أو مؤثرة، إلا إذا كان الطرف المستهدف قابلاً للتأثر بما يتم التآمر عليه به، أو غافلاً إلى درجة لا يمكنه معها اكتشاف ما يحاك له، أو ليس ذكياً إلى حد أنه يمكن أن يتم استدراجه إلى فخ حقيقي، أو لديه أوهام تجعله يتخيل كل شيء على غير حقيقته، وبالتالي يتصرف بناء على تصورات تجعل من الصعب عليه بناء سياسات واقعية مع أطراف يدرك أنها يمكن أن تكون صديقة ومعادية في الوقت نفسه، فالمؤامرات لا تحرك التاريخ، قياساً على استخدام القوة المسلحة، أو الضغط (أو الدعم) الاقتصادي، أو التحالفات السياسية، أو التأثير الإعلامي، فهي فقط تؤثر في مساراته، أو هكذا سار التفكير في هذا الوقت.

إن الفكرة هنا، هي أن سنوات (2010 – 2015)، شهدت عودة إلى التفكير التآمري مرة أخرى في المنطقة العربية، بصورة غير مسبوقة، حتى بالنسبة للفترة التي تمت الإشارة إليها، لكن الفارق، وليتم وضع بعض الخطوط الحمراء تحت تلك العبارة، أن أعمال التآمر قد تصاعدت في المنطقة فعلياً، بحيث بدا وكأن "التفكير التآمري" يستند إلى قاعدة أكثر صلابة، إذ عادت المنطقة إلى تلك العصور التي كانت السياسة تعني فيها المؤامرات، **على نحو ما يشير إليه ما يلي:**

1- الخطط الكبرى، فقد بدا – استناداً إلى معلومات محددة تكاد تكون معلنة – أن دولاً كبرى كانت قد رسمت تصورات لشرق أوسط مختلف، يشهد صراعات مذهبية، وتسيطر عليه قوى الإسلام السياسي، وأطراف إقليمية لديها تصورات بأن تعود الخلافة مرة أخرى، أو أن تسيطر على 6 دول عربية مرة واحدة، وقام كل منها بكل ما يمكنه القيام به، لتنفيذ تصوراته أو أحلامه أو أوهامه، بطرق لا تتفق مع القواعد المتعارف عليها في العلاقات الدولية.

2- قلب نظم الحكم، ففي الفترات السابقة كانت العلاقات تدار بشكل عملي بين دول الإقليم، دون أن تصل إلى حد التفكير في قلب نظم الحكم أو تقسيم الدول، إلا أن ما جرى فعلياً، في بعض دول الثورات العربية، أن المسألة تجاوزت كل الحدود المتخيلة لتعاملات الدول إلى التفكير في التخلص الكامل من نظم حكم قائمة، نجحت أحياناً، ولم تنجح في أحيان أخرى، وتمت في إطار ذلك تدخلات عاتية فيما كان يسمى الشؤون الداخلية للدول الأخرى.

3- التحالفات المتحركة، فلم تعد هناك ثوابت، وساد منطق الصفقات، بحيث تحركت التحالفات، وفق تعاملات أشبه بما يتم في "عالم البيزنس"، في حالات متعددة، بين أطراف لم يكن يتصور أنها يمكن أن تتفق أو تلتقي، ولاتزال تلك العملية مستمرة بضراوة، حتى أنها وصلت إلى تحالفات مع عناصر إرهابية على ساحة الإقليم، فعلاقات بعض دول المنطقة مع جماعات عنيفة أو متطرفة لم تعد في حاجة إلى أدلة مثبتة، فهي تكاد تكون معلنة.

لقد تصاعدت أعمال التآمر على ساحة الشرق الأوسط، في المرحلة الحالية، في ظل انهيار نظم عدة دول في المنطقة، بحيث أصبحت تلك الدول مستباحة تماماً، ومن هنا تصاعد التفكير التآمري، بمبرر حقيقي هذه المرة، ليس لأن هناك من يفكر بشكل غير علمي، لكن لأن هناك من يتآمر فعلياً، وهي واحدة من المشكلات الكبرى التي تواجه السياسيين والأكاديميين معها حالياً، فهناك من يدرك أن عالم ما "تحت الأرض" قد تضخمت تفاعلاته بشدة، وعليه أن يتعامل معه، وهناك من يحاول تفسير تفاعلات لا يعلم الكثير عنها قبل أن تقع، والنتيجة بالنسبة لمن يتابعون اتجاهات الأحداث تحليلياً، ليكتبوا عنها، هي أنهم يجب أن يجدوا طريقة لفهم تطورات تلعب فيها "التفاعلات السرية" دوراً مؤثراً، إلى أن تعود المنطقة إلى الأوضاع الطبيعية، مثلما يحدث نسبياً في غرب أوروبا، حيث يمكن الاستناد، بثقة كافية، إلى ما تعلنه الدول، في تقييم ما تقوم به فعلياً، وحتى يحدث ذلك، سوف تستمر محاولات تفسير ما يصعب تفسيره.

د. محمد عبدالسلام
مدير المركز
أبوظبي، أغسطس 2015